

مستلّة

جامعة القيروان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم علم الآثار

الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط



أعمال النّدوة العلميّة الدوليّة السادسة

(القيروان : 14، 15 و16 أفريل 2016)

صورة الغلاف :
قرية العرمة - جبل وسلات
(الصورة لجهاد الصويد)

نصوص جمعها وأعدها للنشر

جعفر بن نصر ومراد عرعار والنوري بوخشيم



الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط

Campagnes et archéologie rurale au Maghreb et en Méditerranée

9789938819151

Université de Kairouan

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

Département d'Archéologie



Campagnes et archéologie rurale au Maghreb et en Méditerranée



Actes du sixième colloque international

(Kairouan : 14, 15 et 16 avril 2016)

Photo de couverture :
Village d'El-Orma-Jebel Ousselat
(Cliché : Jihed Souid)

Textes réunis par

Jaâfar Ben Nasr, Mourad Arar & Nouri Boukhchim

الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط

جمع النصوص وأعدها للنشر :

جعفر بن نصر ومراد عرعار والنوري بوخشيم

ردمد : 978-9938-819-10-6 - تونس – 2017

تصميم : توفيق الساسي – **طبع** السانباكت

جامعة القيروان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم علم الآثار

الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط

أعمال النّدوة العلميّة الدوليّة السادسة

لقسم علم الآثار بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بالقيروان

(14، 15 و16 أفريل 2016)

نصوص جمعها وأعدها للنشر

جعفر بن نصر ومراد عرعار والنوري بوخشيم



تونس - 2017

الفهرس

تقديم أعمال الندوة

« **الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط**» هو موضوع الندوة العلمية الدولية السادسة لقسم علم الآثار بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان (القيروان 6) التي انتظمت أيام 14 و15 و16 أفريل 2016. ويعدّ هذا الكتاب امتدادا لمنشورات القسم السابقة ومنفذا لدراسة إشكاليات أخرى ما تزال عالقة.

يعود اختيار موضوع الأرياف والآثار الريفية إلى أمرين متلازمين. الأول في علاقة بقلّة الدراسات في هذا المجال وإن كانت متفاوتة الأهمية من بلد إلى آخر. والثاني محاولة تجديد المقاربات الرامية إلى تسليط أضواء جديدة على الريف والآثار الريفية حيث ظلّ الاهتمام بهما ثانويا إلى وقت غير بعيد، وتحتاج العديد من الإشكاليّات المتعلّقة بتاريخ المجالات الريفيّة وآثارها إلى نقاش علمي، وربّما إلى مراجعات على ضوء معطيات نصيّة وميدانيّة جديدة.

ولا يخلو هذا الموضوع من صعوبات عديدة حريّ بنا التذكير ببعضها. هناك أولا قضية المصطلحات التي تعبر عن الريف / المجال الريفي بالغرب الإسلامي، فمثلا مصطلح البادية، وهو مجال البدو الرحل وشبه الرحل الخاضعين إلى حدّ ما إلى السلطة المركزية، لا يشمل القرى في حين أنها مكون أساسي من مكونات الريف monde rural حسب المصطلح الفرنسي. كما أن مصطلح القرية في حدّ ذاته يطرح عدّة تساؤلات في علاقة بالمفهوم والوظيفة ومعايير التصنيف.

هذا وتصعب دراسة الأرياف وآثارها بسبب نقص المادّة في المصادر المكتوبة أو جرّاء عوائق العمل الميداني وما يستوجبه من إمكانيّات ماديّة وبشريّة ضخمة. يضاف إلى ذلك تركيز أغلب الدراسات التاريخيّة والأثريّة على المدن في حدّ ذاتها على حساب الأرياف، رغم علاقة الترابط والتكامل بين المجالين. وينطبق هذا الوضع خاصة على بلاد المغرب حيث تُبرز البحوث الخاصّة بكلّ الحقب في مجال الآثار الريفيّة بونا شاسعا مقارنة بتلك التي شرع فيها منذ زمن ببلدان الضفّة الشماليّة للمتوسط وخاصة فرنسا وإسبانيا.

ومن هذا المنطلق، يعدّ تناول موضوع هذه الندوة رهانا حقيقيا يرمي إلى محاولة تجديد مقاربات البحث التاريخي والأثري في الضفّتين الشماليّة والجنوبيّة للمتوسط، والنظر في سبل تطويرها، ويحتاج بذلك إلى بحوث دقيقة

تتقاطع فيها المعطيات النصيّة والأثريّة والأنثروبولوجيّة. كما تتطلب معالجة جملة المسائل المرتبطة بهذا الموضوع مقارنات بين الحقب التاريخيّة والمجالات الجغرافيّة، ساحليّة كانت أو داخليّة، سهليّة أو جبليّة، لرصد الثوابت والمتغيّرات والمستجدّات. وبديهي القول إن ذلك لن يتسنى دون أخذ الأعمال السابقة بعين الاعتبار ومحاولة تطويرها وفق مقاربات تاريخيّة وأثريّة وإثنوأثريّة جديدة. تلك هي تقريبا الأرضية التي انطلق منها التفكير في موضوع هذه الندوة العلمية الدولية وأهدافها.

يحتوي هذا الكتاب على اثنتين وعشرين مداخلة (ستّ مداخلات باللغة العربية وثمان عشرة باللغة الفرنسيّة) تناولت عدة قضايا في علاقة بالمجال الريفي عموما وبالقيروان وناحيتها خصوصا، وشملت كافة المجالات الريفية وأغلب الحقب التاريخية، وذلك باعتماد مصادر متنوعة ومقاربات جديدة مكنت من الخروج باستنتاجات وفتحت آفاقا مستقبلية للبحث.

في المحور الأوّل المتعلّق بالموضوع الأساسي للندوة «**الأرياف والآثار الريفية**» قدمت جينيت أوماسيب، المتخصصة البارزة في آثار ما قبل التاريخ في المجالات الصحراوية، من خلال أمثلة مختلفة لمواقع أثرية تعود إلى العصر الحجري الحديث، فكرة عن نمط عيش الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ وبالتالي إعادة النظر في المعادلة الكلاسيكية «البداوة = العصر الحجري القديم، الاستقرار = العصر الحجري الحديث».

وكانت فترة فجر التاريخ ببلاد المغرب موضوعا لبحث قدّمه عزيز طارق ساحد تناول فيه مختلف المشاكل المنهجية والكرنولوجية والمعرفية التي تطرحها هذه الفترة وضرورة أخذ أصناف أخرى من الشواهد الأثريّة في الاعتبار ، إلى جانب المعالم الجنائزيّة، وتحديدا المعالم السكنيّة الريفيّة، والزراعة والمخلفات الفنية المتأخرة. ويشير الباحث إلى تعدد المؤشرات التي يمكن أن تمثل للآثاري مفاتيح للبحث في خصوصيّات التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لفترة عصور فجر التاريخ (في بلاد المغرب بشكل خاص) والتي لا تزال في حاجة إلى تعميق البحث حولها وإعادة النظر في عديد من مستوياتها المعرفية والمنهجية.

هذا المؤتمر أتاح أيضا للمختصين في العصور الكلاسيكية تقديم جملة من المقاربات التي تتعلق خاصة بوثائق أثرية ونقائشيّة تهم الفترة الرومانيّة. فمن خلال اعتمادها على وثائق منشورة قدمت نجاة براهمي قراءة جديدة لبعض جوانب الحياة الدينيّة في مدينة وليلة (Volubilis) على التخوم الجنوبية للإمبراطوريّة الرومانيّة.

وتناولت الورقة العلمية التي قدمها لطفي الندّاري ومحمد بن نجمة ملف المعالم الجنائزيّة في غرب البلاد من خلال أحد الأضرحة بـ : «قصر القُنّارة» بنواحي تالة، ويبيّن هذا المثال أهمية استقرار الأعيان بالأرياف في العصر الروماني.

كما اهتم ثلّة من المساهمين في هذا الكتاب بتقديم بعض المواقع الأثريّة الريفيّة مثل بحث بختة موقراينتا المستمد أساسا من المؤلفات المنشورة حول موقع تيجيت (Ala Miliaria)، وهو معسكر

مـن الفـترة السـويريّة، وقـد حاولـت فيـه تقديـم معطيـات حـول تاريـخ البحـث في هـذه المنطقـة المنسـية في غـربي ولايـة موريتانيـا التـي تعـاني حاليـا مـن خطـر الاندثـار. وهـي تسـخّر جهدهـا مـن أجـل حمايـة هـذا الموقـع الهـام وتصنيفـه.

أمّـا النـص الثـاني فهـو لأنيـس الحجـلاوي الـذي يشـتغل عـلى آثـار منطقـة سـيدي بوزيـد بوسـط البـلاد التونسـيّة. ويقـدم في هـذه النـدوة نتائـج البحـث الميـداني الـذي قـام بـه حـول موقـع «هنشـير بـن شريفـة». حيـث كشـفت الحفريّـات عـن آثـار بنايـة ولوحـات فسيفسـائيّة تـبرز فيهـا الآلهـة فينـوس.

وفي بـاب الجوانـب التقنيـة ودراسـة اللّقـى الأثريـة، يحتـوي هـذا المُؤلّـف عـلى عملـين. يتعلـق الأول وهـو لجـون بيـار لابـورت بالتقنيّـات الهيدروليكيـة المسـتعملة في صنـف خـاص جـدّا مـن المطاحـن القديمـة، والتـي يسـتمرّ اسـتعمالها حتـى اليـوم في المناطـق الجبليّـة البربريّـة. ويؤكـد المؤلّـف عـلى قِـدم هـذ الجهـاز واسـتمراره ويوضـح ذلـك بواسـطة أمثلـة مـن مطاحـن هيدروليكيـة ببـلاد المغـرب تعـود إلى العصريـن القديـم والوسـيط.

والعمـل الثـاني قدّمـه الباحثـان فـوزي عبـد الـلاوي ومنـذر براهمـي ويتعلـق بموقـع «هنشـير الصمعـة» الـذي يعـود إلى العـصر القديـم المتأخـر بجهـة قفصـة جنـوب غـربي مقاطعـة البيزاكيـوم، وهـو عبـارة عـن مجموعـة مـن معـاصر الزيتـون تقـدّم لنـا تقنيـة جديـدة لعمليـة العـصر.

وأخـيرا قـدّم نجيـب بـالأزرق بحثـا تأليفيـا مطـوّلا حـول زخرفـة الوجـه في السـجل الأيقـوني الـذي يعـود إلى الفـترة الرومانيـة بالبـلاد التونسـيّة، وبـيّن خصوصياتـه وروافـده.

استأثر العصران الوسيط والحديث بدورهما بنصيب من الدراسات التي تميزت في أغلبها بالجدّة والطرافة، حيث أخذنا النوري بوخشيم إلى جبلي مطماطة ودمّر ليعرّفنا خصائص السجل الزخرفي المعماري موضحا طابعه المحلّي وارتباطه بهويّة المجموعات القبليّة البربرية التي استوطنت بالمنطقة منذ القديم. فهذه الزخارف تستمد جذورها من الفنون الجدارية لإنسان عصور ما قبل التاريخ وتمتد إلى صنوف الإنتاجات الاثنوغرافية للسكان الحاليين،دون أن ينفي ذلك وجود تأثيرات أجنبية بحكم الموقع والعلاقات مع المناطق المجاورة،وهو ما يبرز قيمة العمل الميداني في دراسة المجالات الريفية الجبلية، فضلا عن النصوص والنقائش ووثائق الأرشيف والمعالم كما ستوضحه المداخلة الموالية.

فمن جنوب البلاد التونسية إلى شمالها، كانت قضية تحوّز المجال واستغلاله محور صراع بين السلطة المركزية والقبائل البدوية والمستقرة خاصة منذ الحقبة الموحدية-الحفصية.وقد سعت السلطة المركزية إلى البحث عن آليات جديدة لفرض حضورها بدواخل البلاد، فكانت سياسة التحالف مع القبائل العربية أو البربرية مقابل الإقطاعات وتغذية الصراع بينهما من أجل إضعافها حتى تسهل السيطرة عليها، وهو ما أفرز أشكال تعمير وطرق استغلال جديدة.

فقد استفادت من هذه السياسة مثلا قبيلة هوّارة التي تطورت من قبيلة وافدة إلى قبيلة محاربة ثم إلى قبيلة تسود كامل المجال التلي على حساب الأسياد القدامى وهم بنو كلاع إلى الحدّ الذي استبدل فيه مصطلح كورة أو عمل الأربس بمصطلح وطن هوّارة. لكن ساعد اضمحلال قبيلة هوّارة والانتقال من عمل الأربس إلى وطن الكاف الأسياد القدامى على استعادة نفوذهم على وطن الكاف واحتكار السلطة وبسط النفوذ،كما وضح ذلك مراد عرعار وحياة علوي من خلال تناول قضية تحوّز المجال وصناعة السلطة.

كما مثلت المخطوطات رافدا هامّا من روافد دراسة عالم الأرياف. فقد بيّن أحمد الباهي أهمية مخطوط نسمة الآس في حجّة سيدنا أبي العباس وتحديدا القسم الخاص بجنوب الايالة التونسية لما يقدّمه من تنوّع أسماء الأماكن والمسالك وازدهار العمارة والعمران خلال القرن الحادي عشر هجريّا / السابع عشر ميلاديّا على طريق الحج بين بسكرة وطرابلس، وهو ما يدعو إلى مزيد الانكباب على تحقيق المخطوطات ودراستها.

ومن الزوايا الريفية والقرى الجبلية المحصّنة والصحراء ومسالكها، إلى عالم الأموات والمقابر. فقد أجمعت بعض المصادر على أن مقبرة الزيريين كائنة بالمنستير، وساهمت إعادة تركيب لطفي عبد الجواد لمجموعة من القطع المرمرية المحفوظة بمخازن رباط المنستير في الكشف عن كونها شاهد قبر على شكل سيف لباديس بن المنصور، وهو ما يدعم معطيات النصوص ويسلّط أضواء جديدة على تاريخ الزيريين.

ولم يخرج هذا الملتقى عن عادة الملتقيات السابقة، فقد كان **للقيروان وناحيتها** نصيب من الاهتمام من خلال جملة من البحوث الميدانية والمصدرية. بخصوص عصور ما قبل التاريخ فاهتم جعفر بن نصر (في مداخلة باللغة الفرنسيّة) بدراسة مغارة المنجم بباطن جبل السرج. فبالإضافة إلى أهميّة محتوياتها الجيولوجيّة يلفت الباحث الانتباه إلى آثار توطّن إنسان ما قبل التاريخ بها وينبّه إلى ضرورة حماية هذه المغارة والدعوة إلى دراستها بشكل مستفيض لما يمكن أن تقدمه من معطيات أثريّة هامة حول استيطان جبل السّرج خلال العصر الحجري الحديث.

وفي إطار تجديد الاهتمام بالجغرافيا التاريخية لمجال القيروان خلال العصور القديمة يعود الأستاذ أحمد مشارك ليطرح من جديد مسألة حدود مجال قمونية وجمونس في ردّ واضح على بعض ما كُتب مؤخّرا وليؤكّد جملة من الاستنتاجات التي قدمها سابقا وليوضح بعض المسائل المنهجيّة في التعامل مع أدوات البحث في الطبونوميا والجغرافيا التاريخية.

وفي الفترة الوسيطة لم تشتهر المدرسة القيروانية في مجال العمارة والطب فحسب، بل أيضا في مجال الخط. وهذا ما حاول مراد الرماح إبرازه من خلال دراسة مخطوطات فريدة لبعض المصاحف حيث بيّن لنا كيفية التحوّل من الخط الكوفي إلى الخط المغربي الذي ميّز المدرسة القيروانية.

ومن خلال حفرية فرن لصناعة الآجر بجوار قصر الصحن برقادة، أمكن لكريستوف فاشالد وبقية فريق الحفرية تأريخ الآجر المستعمل في بناء القصر وخاصة دراسة بقايا الخشب الذي وقع العثور عليه بالفرن ومن ثمّ محاولة إعادة تركيب المشهد الطبيعي المحيط برقادة قبل بناء القصر.

وحول مراحل تطور جامع القيروان، يطرح نص البكري عديد التساؤلات التي يبدو أنها بدأت تتوضح نسبيا من خلال ما قدّمه طه الخشين وسندس قراقب. فقد مكّنتهما الاستعانة بنتائج حفرية لإبراهيم شبوح وأسبار من تقديم تفسير للترفيع في مستوى جامع القيروان الذي شُيّد أول الأمر في أسفل محدّب قليل الارتفاع وكان بذلك عرضة للمياه ممّا استوجب الترفيع في مستواه. كما بينت شظايا الخزف الإسلامي التي تمّ العثور عليها مختلف مراحل تعمير الأماكن المحيطة بالجامع.

ومن مركز المدينة التقليدي إلى أسوارها التي ظلت تطرح تساؤلات عديدة استدعت رغم المقاربات السابقة إعادة التفكير في تأريخها وامتدادها وهدمها وإعادة بنائها خلال الحقبة الوسيطة الكلاسيكية. فقد أعاد فتحي البحري التساؤل عن بداية تحصين مدينة القيروان وخاصة عمّا نسب لزيادة الله من هدم أسوار القيروان والتي يجب انتظار المعز بن باديس لإعادة تحصينها. وفضلا عن القول بأن تحصينها سبق محمد بن الأشعث الخزاعي، يصعب في نظره من خلال نص ابن ناجي وبقايا ما يُحتمل أنه السور على طريق سوسة ووادي المالح وخاصة الخزف، التسليم بفكرة الهدم.

ومن القضايا الأخرى التي شدّت الاهتمام قضية السكن الريفي، فقد ظهرت لدى الأعيان منذ العهد الحفصي النزعة إلى الخروج من المدينة على الأقل في فصل الصيف للإقامة في أبراج بأحوازها وعلى مقربة من أراضيهم الزراعية، وهو ما كشفت عنه مداخلة معز الدريدي من خلال دراسته لعقد شراء برج بأحواز القيروان على حافة وادي زرود، قدّم لنا فضلا عن الجوانب القانونية لعملية البيع والشراء، معطيات هامّة عن العناصر المعمارية المكونة للبرج، فكانت الوثيقة بذلك ذات أهمية تاريخية وأثرية بالغة.

ومن الأبراج التي أفادتنا حولها العقود ووثائق الأرشيف، كان للمسح الأثري والعودة إلى المصادر المطبوعة ووثائق الأرشيف دور في التعريف بمكونات قرية العرمة بجبل وسلات كشكل من أشكال السكن الريفي بناحية القيروان له خصوصيّاته التي يستمدّها من ثقافة أهل الجبل ومن البيئة التي تفاعلوا معها فأنتجوا أشكالا متميّزة من السكن. فقد حاول جهاد الصويد تأريخ نشأة هذه القرية واندثارها والتعرف إلى القبائل التي توطّنت بها.

ونظرا لأهمية الماء في تعمير المجالات الريفية، تولى الأمجد الدريدي دراسة منشأة مائية ببريكات العرقوب بدت مميّزة من حيث تقنية بنائها ومصادر التزوّد والتصريف والاستغلال، وحاول تأريخها انطلاقا من تقنيات البناء مبرزا بذلك ظاهرة تواصل التعمير عبر العصور.

وعموما مكّنت أشغال هذا الملتقى من الوقوف أوّلا على بعض البحوث المنجزة ومن تقديم قراءات جديدة في بعض المسائل، وفتحت مسارات عديدة للبحث حول ذات الموضوع، ومهّدت للخوض في إشكاليات أخرى لا سيما مبحث المدن والآثار الحضرية الذي سوف يكون موضوع الندوة المقبلة: القيروان 7.

مراد عرعار والنوري بوخشيم

السجل الزخرفي المعماري بجبلي مطماطة ودمّر : بين الطابع المحلّي والتأثيرات الوافدة.

النوري بوخشيم

(جامعة القيروان، كلية الآداب والعلوم الانسانية، قسم علم الآثار
وحدة بحث الجبال والسهول ببلاد المغرب عبر العصور : الآثار والتراث)

الملخص

نتناول في هذا العمل بعض ملامح السجل الزخرفي في معالم جبلي مطماطة ودمّر من خلال أمثلة تبيّن بوضوح ثراء هذا الزّخرف وتنوّع مواضيعه الهندسيّة والنباتيّة أو تلك المتعلّقة بطبع اليد والقدم وغيرها من الرموز المحليّة البربريّة الأصيلة. بالإضافة إلى تنوّع مواضيعها وثراء مضمونها وتعدّد دلالاتها، تطرح هذه الزخارف والرموز إشكاليّة أصول ومصادر إلهام هذا الفن الجبلي. فهو فن محليّ في عديد مكوّناته ومضامينه كما نجد فيه تأثيرات مواضيع وافدة باعتبار انفتاح مجال جبال جنوب شرق إفريقيّة عن التأثيرات الحضارية. حاولنا في هذه العمل طرح بعض الإشكاليّات دون أن ندّعي الإجابة على كل الأسئلة التي تُطرح حول هذا الفن الجبلي المحلّي. يحتاج الأمر إلى جرد منهجي وتبويب هذه الرموز في مدوّنة تسمح بالوصول إلى استنتاجات بعد إجراء مقارنات مع مجالات جغرافيّة أخرى وحضارات وثقافات بعيدة في الزمان والمكان. نشير أيضا إلى أنّ هذا القسم من تراث جبال جنوب شرقي إفريقيّة مهدّد بالزوال بفعل العوامل الطبيعيّة والبشريّة والمسارعة إلى جرد وتوثيقه ونشره وطرحه للتداول العلمي يعتبر أمرا ملحّا.

الكلمات المفاتيح : جبال، مطماطة ، دمّر رموز، دلالات، فن ، جبلي، زخرف.

Résumé

Malgré la simplicité de l'architecture des montagnes du Sud-est de la Tunisie, la quasi-totalité des monuments sont embellis d'un répertoire décoratif très riche et très diversifié sculpté souvent en relief et gravé sur les roches ou recouvrant les voûtes et les intrados des arcs. Ce décor, associé à des inscriptions, est formé de motifs géométriques (des losanges, des traits, des triangles, des cercles, des points, des étoiles à six branches…), des motifs inspirés de la nature et de certains membres du corps humain comme les mains, les pieds, les bras … etc.

Dans cet article nous avons essayé de traiter les problématiques relatives à ce décor à savoir ses spécificités, ses origines, ses sources d'inspirations et le symbolisme qui se cache derrière ces motifs. Ce registre décoratif semble avoir une origine berbère très ancienne qui remonte probablement à l'époque préhistorique. En même temps, les motifs présents dans cette aire géographique (Matmata, Demmer, Nafoussa, Djerba…), se retrouvent dans d'autres régions et chez d'autres cultures et peuples loin du Maghreb. Certains motifs sont reproduis sur d'autres supports dans le sud-est tunisien tels le tatouage, les bijoux ou le tissage comme le *Margoum* de Toujène.

Outre leurs rôles esthétiques ou commémoratifs étant des signatures des maîtres-maçon ou des propriétaires, ces motifs décoratifs présentent aussi selon les croyances des autochtones, un caractère magique ou prophylactique comme des «protecteurs» contre les malédictions.

Cette recherche n'est qu'un premier constat sur un corpus de décor dense et extrêmement riche en signes et symboles. Nous n'avons pas pu, en effet, répondre à toutes les questions évoquées, on s'est contenté ici de présenter quelques exemples dans l'attente d'un travail d'inventaire systématique qui nous permettra, par la suite, de l'étudier et de procéder à des comparaisons et d'en tirer des conclusions plus profondes. Ce travail vise aussi la documentation de ce patrimoine très original mais menacé de dégradation.

Mots clés : Décor, signes, symboles, Matmata, Demmer, Sud-est Tunisien.

تمهيد

يمثّل هذا العمل مُساهمة إضافيّة في مشروع بحث يسعى إلى تدوين التراث المادّي واللامادّي بجبلي مطماطة ودمّر. فبالإضافة إلى مظاهر التّعمير من مواقع وقلاع وقصور ومراقب وقرى شاهدة على حضارة جبليّة ثريّة، والتي وجدت حيّزا هاما في جلّ الدراسات التي اهتمّت بالجبل، حريّ بنا الاهتمام بمظاهر لا تقلّ أهميّة عن السابقة ونعني بها جوانب من الفن الجبلي والمتمثلة في سجل زخرفي يتميّز بالثراء والتنوّع. ولئن آثرت جلّ الدراسات الاهتمام بالبحث والتفسير والتأويل لمسائل التّعمير والمعمار، فإنّ الاهتمام بالجانب الفنّي أي الزخرف والنقائش الجبليّة ظلّ جزئيّا وفي ارتباط بالدراسات المعمارية[1]. لذلك رأينا ضرورة إفراد هذا السجل الزخرفي

[1] عديدة هي الدراسات التي تناولت التّعمير والمعمار بجبلي مطماطة ودمّر وتناولت جلها بشكل جزئي وهامشي أحيانا هذا الجانب على أهميّة ما ورد فيها وهو ما يمثّل منطلقا للوعي بأهميّة تدوين كامل السجل الزخرفي وإعداد مدوّنات له تسمح لاحقا باستثماره في دراسات تاريخ الفن وثقافة مجتمعات الجبال، أُنظر :
Louis A., 1975 : *Tunisie du Sud, Ksars et villages de crêtes,* Ed. CNRS, Paris ; Louis A., 1975 : *Douiret, étrange cité berbère* ; STD ; Zaied A., 1992, *Le monde des Ksour du Sud-est tunisien* ; Beit El Hikma, Carthage.
بوخشيم (النوري) 2011، **التّعمير والمعمار بجبل مطماطة**، أطروحة دكتورا في علوم التراث، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، إشراف منيرة الرمادي شابوتو، تونس ؛ بوخشيم (النّوري)، 2015، «**حول قرية هدّاج بجبل**

ببحث يشمل كامل المجال الجبلي ضمن إشكاليّة تبحث فيما هو محلّي وما هو وافد في طرز الفن الجبلي. يستدعي هذا التساؤل طرح جملة من الأسئلة الفرعيّة لتيسير فهم مرجعيّات وأصول ومصادر إلهام هذا السجل الزخرفي الثري. فالبحث في هويّة هذا الفن تمرّ عبر فهم موقع هذا الجبل من الظرفيّة التاريخيّة التي مرّت بها جبال جنوب شرقي إفريقيّة عبر الفترات التاريخيّة من عصور ما قبل التاريخ إلى الزمن الراهن، أي هويّة وتركيبة وخصوصيّات المجتمعات التي سكنت الجبال ومدى تأثيرها في الآخر وتأثّرها به، كما تقتضي الإجابة عن هذه الإشكاليّة النظر في مدى تأثير البيئة الحاضنة في عمارة وفن المجتمعات الجبليّة.

إن إخراج هذا التراث الصامت من نقوش وزخارف وكتابات للتداول والنقاش العلمي من شأنه أن يضيف إلى مصادرنا صنف آخر من تراث المجتمعات الجبليّة لا يزال جلّه حبيس أسقف الغرف والمساجد والبيوت والمعاصر ويساهم في الكشف عن جوانب لا تزال غامضة إلى حدّ ما من هويّة تلك المجتمعات. ونعتقد أن دراسة هذه الجوانب الثقافيّة الماديّة واللاماديّة لدى سكّان الجبل، يحتاج إلى قراءة متأنية تبتعد عن التبسيط وتتعامل مع تلك المجتمعات لا باعتبارها مجتمعات نائية بعيدة عن التأثير الحضاري بل باعتبارها مجتمعات منتجة لثقافة[2].

ولقد سعينا في أعمال سابقة، كما ذهبت إلى ذلك دراسات عديدة كانت الجبال موضوعا لها، إلى تفسير أنماط البناء وطرق تنظيم الفضاءات الداخليّة للقرى والمستوطنات وغيرها من الاشكاليّات المتّصلة بتقنيّات البناء ومواده استنادا إلى معاينات ميدانيّة وتقاطعات إثنوغرافيّة وأثريّة بالإضافة إلى معايشة ميدانيّة للمجتمعات المحليّة المستقرة إلى اليوم في الجبل والتي احتفظت بقدر كبير من مهارات وخبرات سابقيهم. وفي كل مراحل النظر إلى التراث الجبلي، لاحظنا ارتباطا وثيقا أحيانا بين مظاهر الحياة الماديّة وذهنيّات ومعتقدات الفاعلين المحليّين أي سكان الجبل وبالتالي كانت استنتاجاتنا حول التوطّن والتّعمير مستمدّة في جوانب منها ممّا هو لامادّي. كما انتهينا أيضا إلى أنّ تفسير الخصوصيّات المعمارية يمرّ أيضا عبر فهم الحياة الاقتصاديّة والاجتماعية.

لكن الجوانب اللامادية، أي كل ما يتعلّق بما هو رمزي أو ما يتعلّق بذهنيّات ونفسيّات وعقائد ومعتقدات وعادات المجتمعات الجبليّة يحتاج إلى الدراسة والفهم والتأويل. وفي مختلف فنون وانتاجات مجتمعات الجبال الثقافية الكثير من الرمزيّة والجوانب العقديّة. يبقى أنّ كلّ محاولة للنّفاذ إلى ثقافة مجتمعات الجبال تبقى عصيّة عن الإدراك دون الاستئناس بوسائل وآليات تفكير

مطماطة»، في المنجي بورقو (نشر) بحوث في التاريخ والجغرافيا والحضارة، أعمال مهداة إلى الأستاذين منيرة الرمادي شابوطو وعبد الله الشريف، مركز النشر الجامعي ودار المعلمين العليا، ص 65-97 ؛ بوخشيم (النّوري)، 2015، «**قراءة في بعض ملامح التعمير بموقع زمرتن بجبل مطماطة**» في جعفر بن نصر والنّوري بوخشيم (نشر)، الجبل والسهل في حوض المتوسط. أعمال الندوة العلمية الدولية الرابعة (القيروان 5، 6 و7 ديسمبر 2011)، تونس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، ص 57-76 ؛ الثّابتي (علي) 2016، **العمارة بجبل دمّر خلال العصرين الوسيط والحديث**، دكتورا في علوم التراث، إشراف محمد حسن، مرقونة وموضوعة بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس ؛ القديدي (ناجي)، **الدويرات : دراسة أثرية وتاريخية**، رسالة ماجستير في علوم التراث، إشراف النّوري بوخشيم، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 2014.

2 من خلال تعاملنا مع التراث المعماري والعمراني للمجتمعات الجبلية لاحظنا قدرا من الصعوبة في التناول الجزئي لهذا التراث، بالتالي ضرورة الاهتمام بكل أشكال الانتاج الثقافي لدى المجتمع الجبلي وإجراء تقاطعات بين ما هو مادي وما هو لامادي.

من داخل تلك المجتمعات[3] وليس لنا من مصادر إلاّ ما خلفته مجتمعات الجبال نفسها من «وثائق» قليلة وموغلة في الغموض أحيانا.

وقفنا من خلال اشتغالنا على تاريخ وتراث الجبال على حقيقة ندرة المصادر المكتوبة واستعضنا عن ذلك بمصادر أثريّة وإن كانت صعبة التّأويل، فهل يعني ذلك أنها مجتمعات مفتقدة لذاكرة مكتوبة في مقابل سيطرة الثقافة الشفوية؟[4]، يبدو التساؤل مشروعا إلى حدّ ما إذا ما اعتبرنا المصنّفات المكتوبة كمقياس لذلك، وإذا ما قارنّاها بما جرى في المجتمعات الحضريّة، يمكن أن نفترض أنّ التّدوين لم يكن شائعا بالقدر الذي عرفته المجتمعات المدينيّة. وحتّى وإن سلّمنا بذلك، فإنّ دراسة جوانب من خصوصيّات هذه المجتمعات الجبليّة والطرفيّة يمكن أن نستند فيه أيضا إلى مصادر ووثائق أخرى مثل الكتابات المنفّذة على جدران المساكن والمساجد والزخارف والنقوش والرموز المُوثقة على محامل مختلفة وهي تمثّل، على صعوبة تأويلها، وثائق إضافيّة هامّة في دراسة تلك المجتمعات الجبليّة[5]، وما على الآثاري إلاّ الاجتهاد في جمعها وتدوينها وتفسيرها، كما تُبيّن مدى عمق الثقافة لديها وارتباطها الوثيق بحضارات عصور ما قبل التاريخ وكل الحضارات التي عرفها مجال شمال إفريقيا وبلاد الصحراء.

يجدر التنويه في هذا المستوى ببعض الصعوبات التي تحف بإنجاز بهذا هذا الملف، وهي من الأسباب التي أخّرت اهتمامنا بهذا الصنف من الفن الجبلي. تكمن الصّعوبة الأولى خاصّة في الوصول إلى تلك الزّخارف في مواضعها ببواطن سقوف وعقود المساكن والمعاصر والمساجد وكذلك لتواتر انهيار المعمار الجبلي الذي عقّد مهمّة الوصول إليها، بالإضافة إلى أن تجميع وتوثيق هذه الزخارف يفوق طاقة الفرد الواحد إذ يحتاج إلى فريق عمل وإمكانيّات ماديّة. ويضاف إلى ما سبق صعوبة دراسة وتأويل وتفسير الزخارف الجبليّة إذ تتطلب رؤية شاملة[6] للفن منذ فترات ما

---

3 لا يمكن برأينا فهم المجتمعات الجبليّة دون ان نستمد وسائل الفهم من داخلها وكل محاولة للقراءة من الخارج تبقى محكومة إما بإسقاطات أو بالسطحيّة لذلك وعند معالجتنا للتراث المعماري حاولنا معايشة تلك المجتمعات لفهم نمط عيشها وعلاقاتها الاجتماعية وتوارثها لمهاراتها.

4 يكفي هنا التذكير ببعض المصنفات التي وصلتنا مثل : الفرسطائي (أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر) 1993، **القسمة وأصول الأراضين**، تحقيق محمد صالح ناصر وبكير بن محمد الشيخ بالحاج، مسقط، مكتبة الضّامري للنشر والتوزيع. الذي ألّفه في تمولست وهو موقع بجبل دمر حيث عاش. حول ترجمة حياة هذا المؤلف انظر : بن وزدو (هادي) وممو (أحمد) وحسن (محمّد) 1999، **قانون المياه والتهيئة المائيّة بجنوب إفريقية في العصر الوسيط**، تونس، مركز النشر الجامعي. غير أن كتابات عديدة لم تصلنا لذلك نعتمد في قراءتنا لتلك المجتمعات على بعض المخلفات المادية مثل بعض النقائش أو المنتجات الفنيّة.

5 عالجت بعض الدراسات جوانب أخرى إن لم نقل صنف آخر من الفن الشعبي ألا وهو «التصوير» الشعبي باعتباره إنتاجا فنيّا جديرا بالاهتمام ضمن سياق ثقافة الشعوب بعيدا عن الفنون الرسميّة وهي أيضا انتاجات غزيرة وشديدة الارتباط بالمرجعيّات الثقافيّة وبمعتقدات وتمثّلات العامّة، تمتزج فيها الاسطورة بالواقع وما هو تاريخي بما هو رمزي وخيالي، انظر : قانصو (أكرم) 1995، **التصوير الشعبي العربي**، سلسلة عالم المعرفة، عدد 203. كما بيّنا في مقال سابق غزارة النقائش المعمارية المنفذة في سقوف الغرف وأهميتها كمادة مصدريّة يمكن أن تقدم الكثير في تأريخ التوطن بالجبل ؛ أنظر : بوخشيم (النوري) 2017، «**من أجل مدوّنة نقائش جبلي مطماطة ودمّر**»، فتحي الجراي (نشر)، دراسات في التراث المكتوب، المركز الوطني لفنون الخط، المعهد الوطني للتراث، تونس، ص 63-84.

6 يستدعي العمل على هذا السجل الزخرفي رؤية شاملة على مستوى المجال الجغرافي وعلى مستوى العمق التاريخي للمنطقة التي انتجت هذا الفن المعماري، كما يستدعي إلماما بفنون المجتمعات الجبلية بشكل عام ومقارنات عديدة للوصول إلى استنتاجات تهم أصول ومصادر إلهام هذا الفن.

قبل التاريخ إلى الحقبة المعاصرة. ولكن سرعة انهيار المعمار الجبلي وتلف قسم هامّ من هذا السجل الزخرفي والكتابي دفعنا إلى الشروع في جرد وتدوين هذا التراث الهش وحفظه من تلاشي يبدو مُتسارعا. لذلك لن يأت هذا العمل على كامل الأشكال الزخرفيّة وعلى دلالاتها فهذا عمل متروك إلى أبحاث قادمة بل سنحاول العمل على نماذج لتلك التشكيلات الزخرفية وبيان ثرائها وتنوعها وغرابتها أحيانا.

I- السياق التاريخي والمعماري والعمراني

قبل الشروع في بسط هذا الجزء من التراث الجبلي، يجدر بنا التّعريف ولو بشكل موجز بالإطار الجغرافي والمعماري العام حتى يسهل فهم هذا الفن الجبلي باعتبار أن كل فن هو ابن بيئته. نشأ هذا الفن في إطار جغرافي جبلي له خصوصيّاته البيئيّة. فمجال امتداد هذا السجل الزّخرفي يتطابق مع امتداد المرتفعات الجبليّة نفسها، من جبل مطماطة شمالا إلى جبل نفوسة جنوبا، مرورا بجبال دمّر بمجال بني خداش والجبل الأبيض بجهة تِطاوين ويتساوق امتداده مع السلسلة الجبليّة ليبلغ جبل نفوسة. على هذا الحيّز الجغرافي الشاسع نشأت وتطورت حضارات مُتعاقبة اختلطت فيها العناصر البشريّة المحليّة والوافدة وأنتجت عمرانا نراه اليوم قُرًى في القمم والسفوح وقلاعا وقصورا للخزن ومساجد ريفيّة لا يزال بعضها متماسك والبعض الآخر تحوّل بفعل الزمن وهجرة السكان إلى أطلال.

مرّت بجبال جنوب شرق إفريقيّة حضارات وشعوب عديدة، ففيها عُثر على آثار إنسان ما قبل التاريخ الذي خلّف لنا رسومات صخريّة هامّة تمثل مشاهد من الحياة اليوميّة لذلك العصر[7] وكانت الجبال مهد حضارة بربريّة محليّة راسخة استمرت لقرون غذّتها مجموعات وافدة. فلم تكن هذه المرتفعات - جبال نفوسة ودمّر ومطماطة - بمعزل عن التّأثيرات، فهي منفتحة بحكم الصّلات التجاريّة والثقافيّة على حضارة المجموعات القبليّة التي كانت تستوطن الصحراء[8] من جهة

[7] تتميّز جبال الظاهر بوجود رسوم صخرية جداريّة بشعاب غمراسن (طاقة حامد، إنسفري وشعبة المعرك)، تعود إلى العصر النيوليتيكي أي حوالي 4 آلاف إلى 5 آلاف سنة، نُفّذت هذه الرسوم بواسطة مِداد أحمر على جدران صخريّة لكهوف طبيعيّة. تمثل الرسوم شخوص وحيوانات مُدجّنة من فصيلة الأبقار والكلاب، وأخرى بريّة مثل القطط الكبيرة والفيلة والنعام والظباء. وهي أمثلة نادرة لفن عصور ما قبل التاريخ في جنوب البلاد التونسيّة. وبالنظر إلى موقعها الجغرافي فهي تحتلّ منطقة وسطى بين الرسوم الصخرية التي عُثر عليها بجبل وسلات ورسوم الصحراء. تمثّل هذه الرسوم مؤشر هام عن توطّن الإنسان ونشاطاته في جبال جنوب شرق البلاد التونسيّة خلال عصور ما قبل التاريخ وقد تواصل تعمير هذه الجبال خلال عصور فجر التاريخ وما الحضارة البربريّة التي عرفها الجبل إلا تواصل وامتداد طبيعي لها، انظر :
Gragueb A., 1990 : « Une nouvelle station de représentations rupestres dans le Sud Tunisien In Sifri-Ghomrassen » ; *REPPAL V,* I N A A, p. 153-162 ; Ghourabi M.-H., 2008, « Les peintures, rupestres de Ghomrassen : un patrimoine archéologique préhistorique unique en son genre, comment le sauvegarder et le valoriser ? », *Revue des Régions Arides* n° 20, p. 99-103 ; Ghourabi M.-H., 2009, « Les peintures rupestres de Ghoumrassen », *PAPERS XXIII Valcamonica Symposium* 2009, p. 173-179 ; Ben Nasr J. et Ghourabi M.-H., 2007, « De nouveaux documents rupestres du sud tunisien (Chaabit El-Maarik : Ghoumrassen) », *Sahara,* 18, p. 154-158.

[8] حول بعض خصوصيّات فن المجتمعات الصحراوية يمكن العودة إلى :
Gabus J., 1958, *Au Sahara, Arts et Symboles,* édition de la Baconnière, Neuchatel, Suisse.
انظر أيضا : علي الخطيب (عفراء) 2006، «**الأشكال الآدمية التخطيطيّة بين الصحراء الكبرى وشبه الجزيرة العربية**»،

ومن جهة ثانية على الأدفاق وحركات القبائل والأفراد بين الشرق والغرب. ونظيف إلى ذلك العامل الديني المذهبي خاصة وأن هذه الجبال كانت خلال عدّة قرون معاقل للإباضيّة[9]، مع بقايا تأثيرات الديانات السابقة للإسلام (اليهوديّة والمسيحيّة) التي نجد مخلّفاتها إلى اليوم في سلوك ومعتقدات وثقافة سكّان الجبال.

هذا الموقع الجغرافي المميّز والانفتاح الذي عرفته جبال جنوب شرق إفريقيّة كانا من العوامل التي ساهمت في جعله قبلة للوافدين ومكان استقرار محبّذ وقد نشأت به حياة عمرانيّة وعلميّة وفكريّة فلا يمكن تفسير دسامة هذا التّعمير والعدد الهائل من المواقع والقصور والقلاع والقرى إلاّ بحضارة عريقة واستقرار امتدّ على زمن طويل.

من ميزات هذه المرتفعات الجبليّة أيضا حركيّة السكّان في المجال وتنقّلهم لأسباب شتّى كالتجارة وطلب العلم والهجرات البينيّة ، هذه الحركيّة ساهمت في نقل الخبرات والمعتقدات وهو السبب الذي يفسّر لنا التشابه الكبير في أنماط التعمير والبناء والزخرف فضلا عمّا يمكن ملاحظته من صنوف التراث اللامادّي. فالمجتمعات الجبليّة تشترك في مجال بيئي واحد وماضي واحد وثقافة واحدة لذلك جاءت إنتاجاتها على قدر من الثراء والتشابه من حيث مواضيعها وخصائصها والفوارق تكون فقط في بعض التفاصيل وهي نتاج لتنوّع البيئة الجغرافيّة ولتنوّع وتعدّد الأذواق والسياقات المحليّة التي نشأت فيها.

II- السجل الزخرفي : محاولة أوليّة في التصنيف

يتميّز هذا السجل الزخرفي الفني بالثراء والتنوّع من حيث الموضوعات التي يبدو بعضها متداولا في الفن الزخرفي الرسمي وفي كل الحضارات تقريبا[10]، ويبدو بعضها الآخر مُستجدا شديد الالتصاق بواقع المجتمعات الجبليّة وخصوصيّاتها. وعموما، فإنّ المواضيع الكبرى للفن الجبلي تتراوح بين تجسيد لمواضيع نباتيّة مستوحاة من الطبيعة وأخرى عبارة عن تشكيلات هندسيّة متنوّعة ومتداخلة ومواضيع لحيوانات منها ما يعيش في البيئة الجبليّة وأخرى لا علاقة لها بالواقع الجبلي إلا من حيث استحضارها لأغراض تتعلق بدفع الحسد. ومن المواضيع التي لا يخلو من أي تشكيل زخرفي ويدفع تواترها إلى التوقّف عندها بشكل خاص، طبع الأيدي والأقدام والأذرع

محمد حسين فنطر (نشر)، الصحراء والانسان معرفة لكسب المهارات وحسن التصرف، فعاليت الملتقى الدولي دوز 2003.

9 حول حركيّة السكان في المجال الجبلي عالجت بعض الدراسات هذه المسألة من زاوية نظر التركيبة القبليّة ودورها في تعمير الجبل، انظر :

Hassen M., 2012, « Peuplement et organisation du territoire dans une région d'implantation Ibâdite : Le Djebel Demmer dans le sud-est de *l'Ifriqiya* Ve-XIe / IXe-XVe siècles », in *Revue du monde musulman et de la méditerranée,* n° 132, pp. 137-154.

الباهي (أحمد) 2015، **حول ظهور قبائل دمر وزنزفة ومطماطة بجنوب شرق إفريقية**، المنجي بورقو (نشر)، بحوث في التاريخ والجغرافيا والحضارة، أعمال مهداة إلى الأستاذين منيرة الرمادي شابوتو وعبد الله الشريف، مركز النشر الجامعي ودار المعلمين العليا، ص 13-64.

10 انظر: أيّوب (عبد الرحمان) 2003، **رموز و دلالات بالبلاد التونسية**، تونس، وزارة الشباب و الترفيه و وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية.

بأشكال وأحجام ومقاييس متنوعة، بالإضافة إلى أشكال ورموز غامضة يعسر فهمها. في هذا البحث، سوف نتناول بعض النماذج التي تتكرر والتي تمكنّا من الوقوف عليها لأنّه من الصعب أن نأتي على كل الرسوم الجداريّة في بحث مختزل[11] ولابد من التنويه أنّنا نسعى إلى تنزيل هذا البحث في سياق عام يتعلق بتاريخ الفن الجبلي ضمن سياق الأعمال التي تناولت بإسهاب أحيانا موضوع الرّموز ودلالاتها والسجل الزخرفي في الفنون الرسميّة عبر مختلف الحضارات التي مرّت بالبلاد التونسيّة أو عبر مجمل المحامل من خزف وجصّ ومنسوجات وجداريّات وغيرها[12].

يستأثر الزخرف بمساحات هامّة من سقوف المعالم وقد يغطّي كامل السقف أحيانا(مساكن، مساجد، زوايا، معاصر، غرف...) وفي بواطن العقود وفي بعض واجهات الأحواش في مستوى المداخل أو في واجهات البيوت والغرف ونادرا ما تكون الجدران الداخليّة حاملة لزخارف أو نقائش لخُلوّها في بعض الأحيان من الملاط الذي يسمح بتنفيذ الكتابات والنقوش والزخارف عليها. تكون أغلب السقوف في المعمار السكني بالجبال من صنف الأقبية الجملونيّة وقباب بالنّسبة إلى المساجد والمعالم الولائيّة وأغلب معاصر الزيتون، ويرتبط هذا التركّز في مواضع بعينها بطريقة إنشاء السقف. إذ يتم انجاز هياكل ساندة بواسطة جذوع النخل أو بواسطة طرق أخرى[13] تسمح للبنّاء بإحداث شكل محدّب تُوضع فوقه طبقة سميكة من الطين وفوقها مباشرة يتمّ وضع طبقة من الجص (الجبس) الرخو وعند هذا المستوى يتم تنفيذ كل أشكال الزخرف أو الكتابات من أعلى لتظهر بارزة من أسفل وهو أمر ممكن باعتبار وجود تلك الطبقة من الطين السفليّة التي تسمح ببروز الأشكال والحروف للنّاظر إلى السقف من أسفل. وحيث أن مادة الجبس التي يتم تحضيرها محليّا من أهم خاصيّاتها سرعة الجفاف والصلابة فإنّها تسمح بتنفيذ كل الأشكال مع قدر من الوضوح. ثم يتم استكمال السقف بوضع طبقات من المونة المتكوّنة من طلاء من الجبس وحجارة صغيرة غير مُشذّبة. وعند اكتمال انجاز الطبقات المُكونة للسقف يتم نزع الهيكل الساند وكذلك الطبقة الطينيّة التي وُضعت فوقها وعندئذ يمكن مشاهدة الزخارف بارزة من الأسفل.

الزخارف ورمزيّاتها :

نبسط في هذا المستوى نماذج من السجل الزّخرفي الجبلي دون ترتيب أو تبويب تفاضلي، بل سنتّبع في عرضها الأكثر تمثيليّة وتواترا أو الأكثر غرابة. كما نسعى إلى البحث في رمزيّة وخصوصيّة كل شكل زخرفي. ويجدر التنويه أنّنا لن نوغل كثيرا في البحث في رمزيّات الزخرف حتى لا يتحمّل هذا البحث ما لا يحتمل في هذا المستوى، فالعمل على رمزيّة الزخرف يبدو

---

11 يعتبر هذا العمل بداية تفكير حول هذا الصنف من التراث، ونحن واعون أنّه من الأهميّة بمكان القيام بجرد دقيق لكل هذه الزخارف في مدونة تحفظه من التلاشي خاصة مع سرعة انهيار المعمار الجبلي وحملات الترميم والصيانة العشوائيّة التي تضرّ بشكل كبير بتفاصيل الزخارف والنقائش، وبالتالي تلف جزء هام ورئيسي من تراث المجتمعات الجبليّة.

12 انظر :
Chevalier J. et Gheerbrant A., 1990, *Dictionnaire des symboles, mythes, rêves, coutumes, gestes, formes, figures, couleurs, nombres,* Robert Laffont/Jupiter, Paris.

13 حول طرق إنشاء السقف انظر :
Louis A., 1975.

أمرا وإن كان ممكنا بل ومطلوبا، فهو على قدر من العسر في هذه المرحلة ويحتاج إلى بحث ميداني ودراسة إثنوأثريّة مدققة وإلمام، لهذا نكتفي في هذه المرحلة بتجميع ونشر هذه الأمثلة من الزخارف وطرحها للنقاش العلمي.

- اليد والقدم

يتكرر ويتنوّع تجسيد اليد في الزخرف الجبلي في جل المعالم التي عايّناها وفي أغلب المواقع الأثريّة. ويأتي تصوير اليد في مواضع وأشكال وهيئات عدة. إمّا تكون مفردة أو كعنصر من تشكيل زخرفي متعدد العناصر:

* تكون اليد أحيانا في حقل الكتابة مضافة إلى كتابات ونقائش وهي هنا تلعب دور التوقيع الإضافي للبنّاء أو لصانعه أو لصاحب المسكن. (صورة عدد 1)
* ترفق الأيادي أحيانا بالأقدام. والمتأمل في بعض الحالات التي تكون فيها مرفوقة بكتابات يتبيّن أنها تعود إلى البنّاء والصانع وأحيانا «كاتب الخط» وتحمل بعض الأسقف تاريخ تشييد السقف: يبدو أنّ طبع اليد والقدم هنا بمثابة التوقيعات إضافيّة أي إمضاء إلى جانب كتابة الاسم.



صورة عدد 1: طبع الأيدي والأقدام داخل دوائر

* تُرسم اليد مبسوطة (الكف) إمّا منفردة (اليد اليمنى أو اليسرى) أو اليدين معا، وعادة ما تكون وسط دائرة إمّا كخط دائري أو دائرة في شكل نقاط. (صورة عدد 2)
* في بعض الأسقف وجدنا كامل اليد والذراع وسط دائرة. (صورة عدد 3)
* تكون أصابع اليد مضمومة إلى بعضها البعض. كما تكون في أحيان أخرى منفرجة ومتباعدة. وهي تشير في غالب الأحيان إلى دفع الحسد والعين الشريرة. في حالة وحيدة عثرنا على كفّ يقطع أصابعه (السبّابة والوسطى والبنصر) خط مستقيم. (صورة عدد 4)



صورة عدد 2 : يد تحيط بها دائرة من نقاط



صورة عدد 3 : الأذرع والأيدي داخل دائرة



صورة عدد 4 : يد يقطع أصابعها خط مستقيم (بني زلطن)

شاع في بعض القرى الجبليّة تقليد نقش الأيدي والأقدام على المسطحات الصخريّة وهي ممارسة ارتبطت بمناسبات تتعلق بالأفراح أو الختان[14]. ففي قرية قرماسة الجبليّة نجد على المسطحات

[14] يرتبط تقليد نقش اليد والقدم في قرية قرماسة الجبلية باحتفالات الزواج والختان حيث يُصعد بالعريس يوم زفافه أو بالصبي يوم ختانه إلى قمة الجبل حيث الأرضيّة الصخرية وهناك يقوم بنقش يده أو قدمه وهو نوع من التوقيع. وقد ارتبط القدم أيضا بالتوقيع أو بإثبات الوجود ولنا في الأمثال الشعبية الكثير من الأمثلة إذ يقال لمن تملك مكانا «**أول من وضع قدمه في مكان ما**» كما أن الألعاب الشعبية التي في علاقة بالنعل أو الحذاء عديدة. في تقاليد الزواج يوصى كل من العروسين بأن أو من يضع قدمه فوق قدم الآخر فقد ضمن أسبقيّة معنويّة على الطرف الآخر في الحياة الزوجيّة. في بعض المجتمعات البربريّة من بين الهدايا التي يقدمها العروس لعروسه نعل ولذلك رمزيات لدى المجتمعات البربريّة. انظر :
Leroi-Gourhan A., 1958, « Le symbolisme des grandes signes dans l'art pariétal paléolithique», Bulletin de la société préhistorique de la France, Tome 55, n° 7-8, pp. 384-398 ; Gast M. et Jacob J.-P., 1982, « Le don des sandales dans la cérémonie du mariage en Ahagar : une symbolique juridique ? », *Libyca*, XXVI,

الصخريّة رسم للقدم أو لمحيط النعال بواسطة خطوط (صور عدد 5).



صورة عدد 5 : تقليد نقش القدم على الصخر في قرماسة

هذا الشكل من الفن الصّخري عند المجتمعات الجبليّة الحاليّة شبيه بما نجده في الفن الصخري في حضارات عصور ما قبل التاريخ. فهذا الصنف من التعبير ليس من ابداعات المجتمعات الجبليّة بالبلاد التونسيّة إذ يبدو أن تجسيد اليد كعنصر زخرفي له دلالات عديدة ووُجد في الحضارات السابقة[15]. كما نجد اليد في محامل أخرى مثل النسيج والحلي. كما أنّ لليد رمزيّات متعدّدة في ثقافة المجتمعات الجبليّة[16].

Alger, pp. 223-233 ; Ben Nasr J., 2016, « Les gravures de sandales du village berbère de Guermessa (Sud-Est tunisien) », Boukhchim N. et Ben nasr J., (éds.), *Peuplement, territoire et culture matérielle dans l'espace méditerranéen, Actes du cinquième colloque international du Département d'Archéologie, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan, (15-17 avril, 2014)*, pp. 21-29, Tunis.
Prevoste (Virginie), 2016, *Les mosquées Ibadites du Djebel Nafusa, architecture, histoire et religions du nord-ouest de la Libye VIII^e^-XIII^e^ siècles)*, Socity for libyan studies monography 10, pp.187-198.

15 Champault D. et Verbrugge A.-R., *La main, ses figurations au Maghreb et au Levant*, Muséum National d'Histoire Naturelle, 1965 ; Drappeau (Saba-Farès), « La représentation de la main dans les gravures rupestres en Jordanie du sud », *Journal of Epigraphy and Rock Drawing*, 20015, pp. , Camps Gabriel, « La main et la segmentation quinaire chez les berbères », *Antiquité Africaine*, 2001, pp. 141-147. Le Quellec (Jean-Loic), *Symbolisme et art rupestre au Sahara*, L'Harmatton, 1993.

16 لليد مكانة في ثقافة المجتمعات منها « وضع اليد في اليد » بين شخصين هو كناية عن الالتزام، كما أنّ المصافحة باليد هي عنوان اتفاق في عقد النكاح أو الصفقات. وما يُروى في مجال السحر والشعوذة أنّ أشدّ أصناف السحر تلك التي تدخل فيها يد إنسان ميّت.

تكون الأيدي المجسدة على الأسقف في العمارة الجبلية عادة مقترنة بالأقدام في أشكال وأحجام مختلفة. وتكون القدم إمّا منفردة أو مثناة بالتالي تنتمي إلى شخص واحد أو تكون موزعة على السقف وهو ما يفيد بأنها لأشخاص لهم صلة بإنشاء السقف. إنّ النظر بدقة إلى حقل الزخرف يتفطن إلى أن مكوّنات الزخرف تكون عدد من المؤشرات الدالة على عدد الأشخاص الذين شاركوا في هذا البناء فالأسماء مرفوقة بعبارة «كاتب الخط» أو «صنعت» أو «شغل فلان» كلها مؤشرات توحي أنّنا إزاء مجموعة من توقيعات مختلفة لنفس الأشخاص[17]. عثرنا أيضا في بعض الأسقف على أقدام صغيرة الحجم مما يدل على أنها لأطفال صغار، بعض الأقدام محاطة بدوائر أو بدوائر في شكل نقاط.

- الدوائر والنقاط

تتكرّر الدوائر في الزخرف المعماري الجبلي، وهي إمّا دوائر منفردة أو دوائر متراكزة. تكون الدائرة أيضا إطار يتم داخله تجسيد أصناف أخرى من الزخرف مثل الأيدي أو الأقدام. تكون الدائرة أيضا محاطة بدائرة أخرى مجسدة بواسطة النقاط أو تتوسطها دائرة من النقاط المتجاورة على هيأة سبحة (صورة عدد 6).



صورة عدد 6 : دائرة مقسمة بواسطة خطين متقاطعين وتملء الفرغات الأربعة أربعة دوائر صغيرة (قلعة مطماطة)

كما أن الخُمسة هي من الرموز واسعة الانتشار في المجتمعات البربرية التقليدية في جبلي مطماطة ودمّر. في جبل وسلات يعتبر العدد «خمسة» قاعدة في التقسيم الاجتماعي للجبل الذي ينقسم إلى خمس مجالات وتسكنها خمس مجموعات قبلية.

نجد لدى مجتمعات بعيدة جغرافيا عن المجال الذي نشتغل عليه عدد من الرموز شديدة الشبه من حيث الأشكال أو من حيث رمزيّاتها أو وعلاقاتها بالجوانب الاجتماعية لتلك المجتمعات بما نجده في السجل الزخرفي الجبلي بإفريقية، أنظر على سبيل المثال :

ونزل (مارين) 2007، زخارف المنزل النوبي، ترجمة فؤاد محمد عكّود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، قانصو (أكرم) 1995، **التصوير الشعبي العربي**، سلسلة عالم المعرفة، عدد 203.

[17] تعرضنا في مقال سابق حول النقائش المعمارية بجبلي مطماطة ودمر إلى هذه الأمثلة حيث يوجد في نفس الحقل الزخرفي توقيعات البناء بالأسماء أو بالأيدي والأقدام ؛ أنظر : بوخشيم (النوري)، 2017، «**من أجل مدونة نقائش جبلي مطماطة ودمّر**»، فتحي الجراي (إشراف)، دراسات في التراث المكتوب، المركز الوطني لفنون الخط بالمعهد الوطني للتراث، تونس، ص 73-86.




صورة عدد 7 : باطن عقد بمسجد زمرتن به تشكيلات زخرفية عمادها نقاط



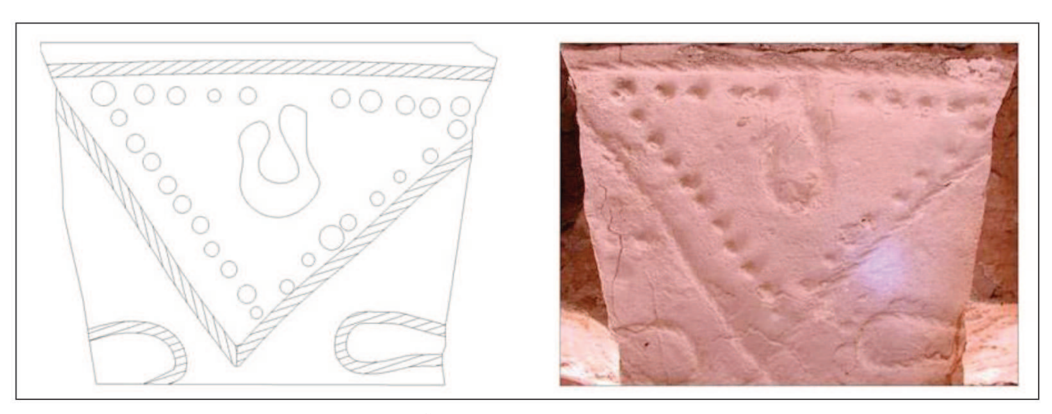
صورة عدد 8 : دائرة تتوسطها خطوط متقاطعة بواسطة نقاط (الزراوة)



صورة عدد 9 : دوائر متراكزة ونقاط (الزراوة)

تـرى بعـض المجتمعـات فـي الدوائـر كنـوع مـن التحصـين ضـد « العـين الشـريرة » والحسـد . كمـا تـرى مجتمعـات أخـرى باختـلاف أعراقهـا ودياناتهـا ومعتقداتهـا فـي الدائـرة علاقـة وطيـدة بشـكل ورمزيـة كوكبـي الشـمس والقمـر وأشـكالها الدائريـةّ[18].

نقـف في جـلّ التّشـكيلات الزخرفيّـة الجبليّـة علـى تواتـر اسـتعمال النقطـة كعنصـر زخرفـيّ أساسـيّ فـي تكـوّن الرمـوز أو كإطـار للشـكل الزخرفـي . لذلـك خيّرنـا عـدم إفـراد هـذا العنصـر باهتمـام خـاص لأنـه مبثـوث فـي كل التشـكيلات الزخرفيـة تقريبـا . وهـو منطلـق ومكـوّن أساسـيّ لهـا .



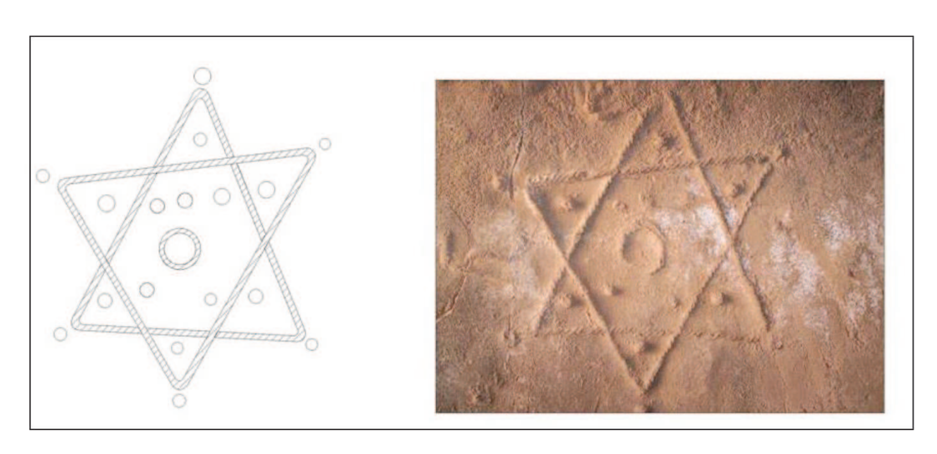
صورة عدد 10 : مثلث داخله شكل زخرفي .

[18] Le Quellec J.-L., *op. cit.*, p. 503-523.

- النجمة سداسيّة الأطراف

من التشكيلات الزخرفية التي تلفت الانتباه النجمة سداسيّة الأطراف. نجدها في المعالم الدينيّة والمدنيّة ولم نجد فيما اطلعنا عليه خلال البحث الاثنوغرافي الميداني تفسيرا منطقيّا لدى ممن استجوبناهم سوى تأويلات يذهب بعضها إلى اعتبارها مجرد شكل زخرفي فيما يشير البعض إلى أنها من تأثيرات وجود اليهود في الجبل وهو تفسير ضعيف جدا باعتبار ان وجود هذا الشكل الزخرفي قديم جدا ونجده في جلّ الحضارات وجل المعالم ونجده أيضا في الفن الرسمي مثل الجامع الأعظم بالقيروان. أو في السكة الفاطميّة[19] حيث نجد شبها كبيرا بين شكل النجمة السداسيّة المجسّد على السكة الفاطميّة وشكل المثلثات المتقاطعة أو النجمة سداسيّة الأطراف التي نجدها في الزخرف الجبلي وإذا أضفنا إلى ذلك النقاط والدوائر يصبح الأمر مثير للأسئلة. صحيح أنّ المؤشرات الأثريّة والنصيّة[20] التي بحوزتنا لا تجيز لنا المغالاة في المقارنة والتأويل غير أنها تسمح بطرح الأسئلة حول رمزية وجود هذه الأشكال الزخرفيّة وصلتها بالمعتقدات والحضارات. بالتالي نعتقد أن الطريف ليس وجود النجمة السداسية الأطراف في حدّ ذاتها بل فيما أضيف لها من عناصر زخرفيّة.

عثرنا في بعض المعالم على نجمة سداسيّة الأطراف، تتكوّن من تقاطع مثلثين في اتجاهين متعاكسين فينتج على تقاطعهما نجمة بها ستة اطراف وفي زاوية كل طرف نقطة. ونحصل أيضا على ستة مثلّثات صغيرة، داخل كل مثلث نقطة. تتوسط الفضاء الداخلي دائرة تعلوها ثلاث نقاط وأسفلها نقطتان. ليصبح مجموع المثلثات ثمانية والنقاط سبعة عشر نقطة ودائرة وسطى داخل شكل سداسي الأضلاع.



صورة عدد 11 : نجمة سداسية الأطراف (قلعة مطماطة)

19 عالج محمد الغضبان في مقال له حول السكة الفاطمية مسألة أرباع الدنانير الفاطميّة المضروبة بصقلية والتي وُجد بها شكل النجمة السداسيّة. انظر : الغضبان (محمّد)، 2016، «**محاولة في تفسير تصميم أرباع الدنانير الفاطميّة المضروبة بصقليّة**» محمد الغضبان (نشر)، ضمن فعاليّات الملتقى الدولي الثالث لقسم علم الآثار بالمعهد العالي للعلوم الانسانية بتونس، 2-4 ديسمبر 2013، تونس، ص 33-70.

20 تذكر النصوص حملات الفاطميين في ربوع إفريقيّة منها حملة القائم نحو جنوب إفريقيّة سنة 315 هجري، من ناحية أخرى عالجنا إشكاليّة الجامع المندرس بقلعة مطماطة والذي ذكر تقرير أحد الضبّاط الفرنسيّين أنه عُثر في أثناء حملات ترميم على نقيشة تؤرخ المعلم بسنة 311 هجري، وإذا علمنا أحد أكثر هذه الأشكال طرافة يوجد أيضا في نفس الموقع أي قلعة مطماطة (صورة عدد 11) تصبح لدينا مؤشرات تمكن من فرضيّات عمل لكن لا يمكن الاطمئنان إلى ذلك بشكل قطعي.

- **الزخرف النباتي**

* **الجريدة** : من المواضيع النباتيّة المجسدة في الزخرف الجبلي الجريدة أو الأغصان نجدها في شكل مجرد أو تحاكي الواقع وهي مستوحاة دون ريب من البيئة المحليّة التي تمثل فيها النخلة مكوّن أساسي في حياة الناس منها الثمار (بلح أو رُطب) ومنها الخشب والجريد الذي يُستعمل في البناء وفي الحياة اليوميّة[21].



صورة عدد 12 : جريدة (بني زلطن)



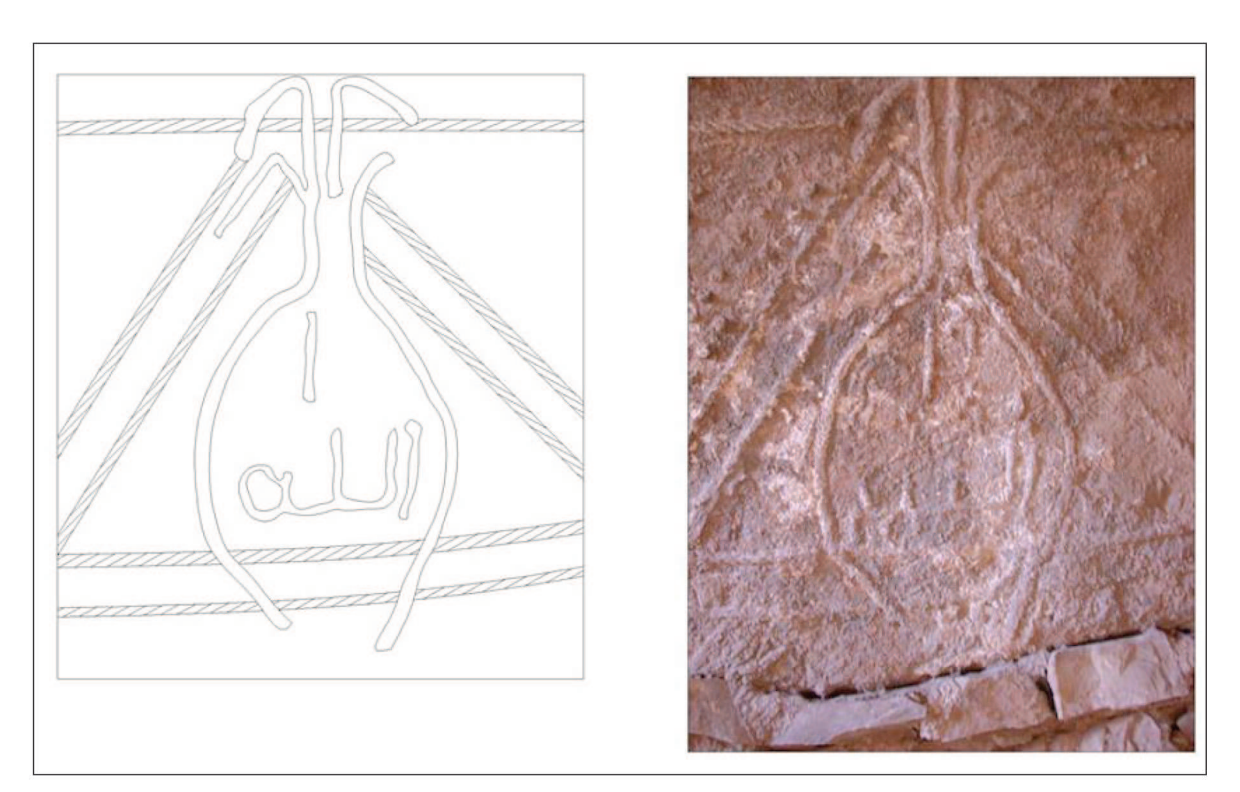
صورة عدد 13 : جريدة (قصر الجوامع)

- **نجد أيضا عنصر المرمدة أو المزهرية**[22] :

المثال الأوّل مزهريّة عثرنا عليها في سقف أحد الغيران بقلعة مطماطة تتوسّط تشكيل زخرفي عماده تقسيم فضاء السّقف إلى فضاءات متقاربة المساحة بواسطة خطوط مثنّاة متوازية. هذه المزهرية داخلها كلمة « الله » تعلوها كلمة غير مقروءة بسبب اهتراء السقف، ويخرج من فوهة المزهريّة غصنين معقّفين إلى الخارج (صورة عدد 6).

21 يتواتر استعمال عنصر الجريدة أو النخلة في زخارف الحضارات، انظر مثال ذلك :
Chérif Zohra, 2006, « Le palmier dattier et son image dans l'iconographie carthaginoise », Fantar M.-H. (éd.), *Le Sahara et l'Homme, un savoir pour un savoir faire,* actes du colloque de Douz, 2003, pp 6784.

22 المزهريّة عنصر زخرفي وُجد في السجلات الزخرفيّة الرسمية في العصور القديمة والوسيطة. في الفن الإسلامي نلاحظ وجودها في زخارف المسجد الأموي وهي مستوحاة من الفن الزخرفي البيزنطي.



صورة عدد 14 : مزهرية يخرج منها أغصان وتحتوي كلمة الله (قلعة مطماطة) .

الشكل الثّاني الذّي لا يمكن تأريخه بدقة عثرنا عليه في قرية الدويرات وهي مزهريّة تمثّل نموذجا للزخرف الذي يعتمد على النقر في واجهة صخريّة وتجسّد إناء عليه طبق نجمي وتخرج منه أغصان مورقة .



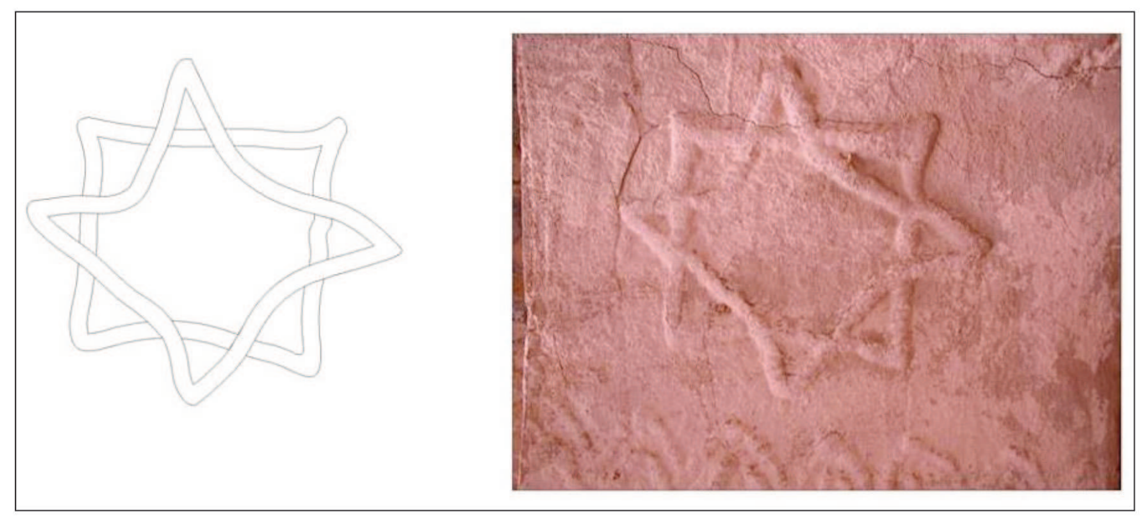
صورة عدد 15 : مزهرية (الدويرات)

– الزخارف ذات الطابع الهندسي :

من العناصر الزخرفية المتواترة في التشكيلات الزخرفية بشكل عام نجد المواضيع الهندسيّة. يتكوّن الزخرف الهندسي من أشكال متنوعة ومتجاورة مثل المعيّنات والمثلّثات والمربّعات القائمة على زواياها. أو الخطوط المنكسرة والمتموجة في شكل أشرطة إمّا لتقسيم الفضاء المُراد زخرفته أو تُستعمل كعناصر زخرفيّة للسقف. ويتمّ في بعض الأحيان دمج هذه العناصر مثل المعيّنات التي تقسم من الدّاخل بواسطة خطوط مائلة أو متموّجة[23].



صورة عدد 16 : خطوط متوازية مزدوجة تقسّم فضاء السقف إلى أشرطة. الفضاء الداخلي مزخرف بواسطة خطوط منكسرة ترسم مثلثات داخلها أطباق نجميّة وصور حيوان الضربان ويد مطبوعة (قلعة مطماطة)



صورة عدد 17 : شكل هندسي : تداخل مربعين تكون أضلع المربع الأول منتظمة بينما المربع الثاني القائم على إحدى زواياه جاءت أضلعه منكسرة نسبيّا (هدّاج)

---

[23] نفس المواضيع الزخرفيّة الهندسية نجدها في محامل أخرى مثل النّسيج : مثال المرقوم في قرية توجان أو الحنّاء أو الوشم أو الفخار اليدوي. حول الفخار اليدوي التقليدي انظر :

Guichard P. dir. 2015, *Par la Main des Femmes : la poterie modelée du Maghreb*, publications de la maison de l'orient et de la méditerranée-hors collection. 485 pages.

تكفي ملاحظة دقيقة ومقارنة بسيطة للوقوف على التّشابه الكبير بين الرّسوم الماثلة على أواني الفخّار وتلك التي نجدها توشّح سقوف مساكن الجبل. إذ يتمّ تقسيم المساحة الخارجيّة للآنية إلى أشرطة ومساحة متقاربة وداخلها يتم اختيار تشكيلات زخرفية عمادة الخطوط المنكسرة والمتوجة والمعيّنات والمربعات والنقاط. هذا التشابه منطقي جدا فكل الملامح العامة للزخرف تخضع إلى مبدئي الوحدة البشريّة والجغرافية والروافد الحضاريّة التي يتغذّى منها الفن الجبلي.



صورة عدد 18 : مجموعة زخرفية بسقف مسجد بقرية الزراوة: خطوط منكسرة تتوسطها نقاط، نجمة سداسية منجزة بواسطة نقاط، دوائر ونقاط ...



صورة عدد 19 : زخرف هندسية بمسجد بالزراوة

صورة عدد 20 : دوائر (الدويرات)

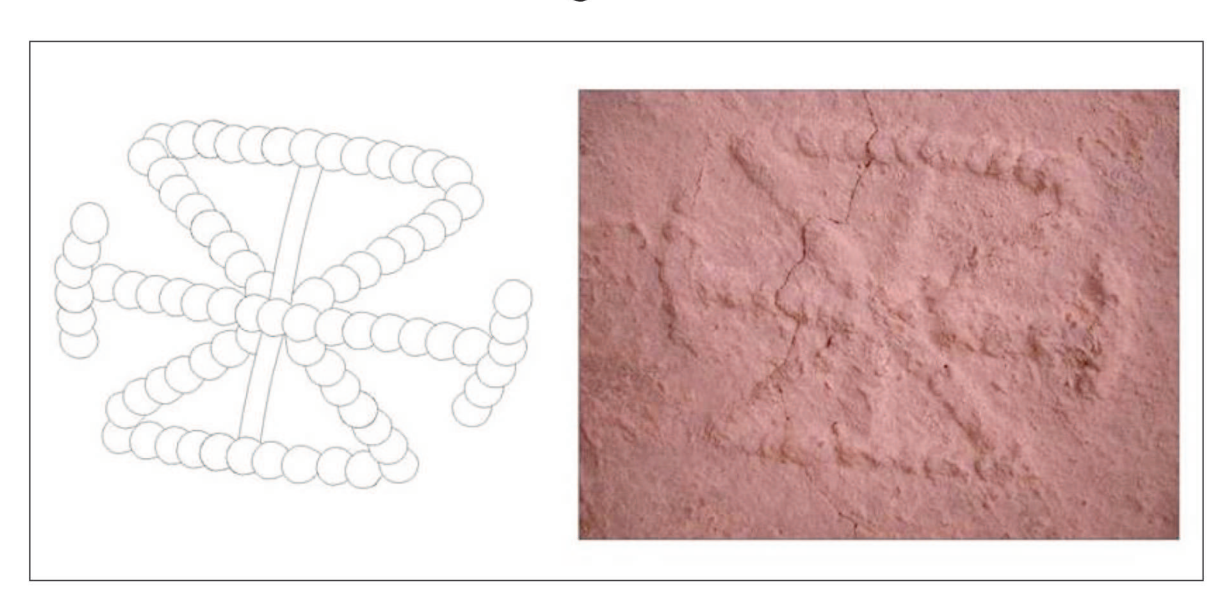
صورة عدد 21 : سقف غرفة بقصر الحلوف: تشكيلات هندسية ونقاط وخطوط متموجة ومنكسرة



صورة عدد 22 : ساكف عقد بقصر الخراشفة :
خطوط متقاطعة ونقاط

- تشكيلات زخرفية متنوعة :

* بعض العناصر الزخرفية ذات المواضيع الغريبة نسبيّا :



صورة عدد 23 : جامع هداج



صورة عدد 24 : حيوان الضربان قلعة مطماطة



صورة عدد 25 : شكل زخرفي على هيأة tirboulette (هدّاج)



صورة عدد 26 : قصر الجوامع : قدم ومفاتيح ودوائر ونقاط

خاتمة

يطرح الاشتغال على صنوف الانتاجات الثقافيّة لسكّان الجبال مسألة الاستمراريّة في التّراث من خلال تلك الرموز والعلامات والنقوش والزخارف المجسّدة على سقوف وواجهات المساكن التى لا يزال بعضها مُتداولا في حياة الانسان الجبلي إلى اليوم[24] والبعض الآخر اندثر تماما باستثناء أثره في محامل عدّة منها الخزف والمنسوجات والزخارف المعماريّة. يطرح هذا الرّصيد الزخرفي الفنّي أيضا مسألة التّمازج الحضاري والثّقافي، فهو إلى حدّ ما خلاصة تلك الشعوب التي عاشت في الجبل أو في مجالات أخرى كانت لها صلات به، وقد شمل هذا التمازج النواحي المعماريّة والفنيّة وكل أصناف الانتاجات الثقافيّة. من خلال هذا البحث يمكن أن نخلص إلى الملاحظات التالية :

1– إنّ أولى الإشكاليّات المطروحة في هذا المستوى من البحث هي مسألة التأريخ. هنا نجد أنفسنا أمام مشكل تأريخ الرموز حتى يسهل تصنيفها وتبويبها ودراستها ضمن السياق التاريخي العام للتّعمير في الجبل. وحيث أن من أعقد المشاكل التي تعرض لها كل من خاض غمار البحث في تاريخ الجبال هي مسألة تأريخ التوطّن في غياب المصادر المكتوبة وقلة عدد النقائش التي تمكّن من تأريخ المعالم، فإنّ عملية تتبّع تاريخ هذا الزخرف يجب ان تقترن بالبحث عن نقائش في نفس السقف وفي نفس المعلم.

2– من خلال هذا العمل نخلص أيضا إلى تواصل تقاليد الزخرف وامتداه الجغرافي بحيث لا يمكن الاشتغال عليه إلاّ عبر الزمن الطويل. فالتحوّلات في هذه المجتمعات بطيئة نسبيّا ونفس الرموز نجدها في جلّ الحضارات وفي استعمالات مختلفة. هذا التداخل يفرض على الباحث توسيع أفق الدراسة جغرافيّا وحضاريّا.

3– لا يمكن برأينا الحسم بشكل قطعي في هويّة هذا الزخرف. من خلال دراسة هذا عناصر هذا الفن الزخرفي الجبلي نجده في بعض الجوانب متفرّد بطابع خاص مميّز له، لكنه في ذات الحين يشترك في عديد الخصائص مع الفنون التي عايشها أو تلك السابقة له تاريخيّا وفي بعض ملامحه وعناصره حتّى البعيدة عنه جغرافيّا ممّا يعني انفتاح المجتمعات الجبليّة فمثلما أثرت فقد تأثّرت أيضا بحضارات المجتمعات الصحراوية والجبلية والحضريّة. نجد في هذا الفن ملامح الفن الصخري لعصور ما قبل التاريخ ونجد أيضا ملامح المجتمعات والحضارات البريّة والصحراويّة بحكم الصلات البشريّة وتنقل الإنسان في نفس الحيّز الجغرافي. هو إذن فن تتلاقح فيه فنون المجموعات القبليّة البربريّة التي سكنت الجبل (مطماطة - دمّر ونفوسة باعتبار انتماء هذه المرتفعات إلى نفس السلسلة الجبليّة) منذ العصور القديمة أي هو مزيج لثقافة وحضارة تلك المجتمعات بموروثها من المعتقدات الدينيّة وتأثيرات البيئة وعلاقاتها الاجتماعية وخصوصيّاتها الثقافية المادية واللاّمادية وهي إلى ذلك مزيج من الواقع الاقتصادي المعيش للإنسان في تفاعل مع بيئته.

---

24 كل من عاش في الجبل أو في الأرياف المتّصلة به، وحتى في بعض المدن لعلّه رأى الكثير من تواصل تلك العادات والتقاليد التي عُرف بها أهل الجبل. كما تتواصل شتّى الرموز والعلامات والتمثّلات إلى اليوم. ورغم نُدرة هذه العناصر الثقافيّة القادمة من الماضي واضمحلال بعضها في سياق التحولات الاجتماعيّة المُتسارعة، فإن تشبّث بعض المجتمعات الجبليّة بالعيش في الجبال إلى اليوم (زراوة، تمزرت، تاوجوت، مطماطة، الدويرات، شنّني ... إلخ) منحها القدرة على المحافظة على رصيد هام من تراثها المادّي واللامادّي - وهو اليوم موضوع مُحبّذ للمهتمين بشأن التراث -

ولكن وفي نفس الوقت جلّ العناصر الزخرفية والمواضيع مثل نحت أو رسم اليد أو القدم أو الأشكال الهندسية مثل الدّوائر والنّقاط والمعيّنات والمثلّثات وغيرها ترقى إلى حضارات إنسان ما قبل التاريخ ونجدها في جل الحضارات القديمة ولها رمزيات مختلفة بحسب كل حضارة.

4– إنّ فهم هذا السجل الفنّي ومحاولة تفسيره وتأويله عمليّة تحتّم علينا ربطه بتفاصيل حياة أهل الجبل ونظامهم الاجتماعي والنظر إلى رموزه من زاوية ربطها مع معتقداتهم وقيمهم وحياتهم اليوميّة بالتالي فإن التوسل ببحث إثنوغرافي وإثنوأركيولوجي أمر ضروري.

5– من الاستنتاجات التي نخلص إليها عند دراستها للسجل الزخرفي الجبلي والتي يشترك فيها مع بعض فنون حضارات أخرى، هي الكثافة والتكرار، والتداخل حتى أن كامل الفضاء نجده مزدحم بالرموز والمواضيع الزخرفيّة دون ترتيب أو تبويب أو نظام معيّن. ومن البديهي أن تكون وراء ذلك جملة من الايحاءات والتعبيرات. إنّ تكرار تلك الأشكال في مناطق مختلفة يجعلنا نميل إلى اشتراك مجموعات متباعدة في المكان والزمان أحيانا بالتي هل يمكن اعتباره فن يعبّر عن ذوق جماعي وليس مجرّد تعبيرات فرديّة للبناء / الفنّان أو لصاحب المسكن. يصبح بذلك فن يُعبّر عن ذوق وثقافة المجتمع الجبلي ككل. وإن كان من الصعب رصد اتجاهات التأثير والتطورات الدقيقة لهذا الفن.

6– في بعض التشكيلات الزخرفيّة وجدنا نوعا من الترتيب والنظام بحيث يعمد الفنان / البنّاء إلى تقسيم السقف إلى أشرطة متوازية ويتم ملء الفراغات بمواضيع لا شكّ أنها تحمل دلالات بالنسبة له.

7– يعتبر مبحث الرموز ودلالاتها على قدر من الصعوبة، وتزداد الصعوبة عندما يتعلق الأمر بالزخرف الجبلي ورموزه الموغلة في الغموض. إذ تختلف زوايا النظر إلى الرمز وتحديد دلالاته. فالرموز هي إشارات وتعبيرات تعبّر عن سلوك أو ردّة فعل أو موقف في لحظة ما وهي خطاب يحمل مدلولات ودلالات والكثير من تلك الرموز هي خطاب متعارف عليه أو متفق في شأنه بين مجموعة بشريّة ما لذلك نجدها ترسم بنفس الطريقة في حضارات مختلفة وفي مجالات جغرافيّة متباعدة. ولعلّه السبب الذي يجعل من تلك المجتمعات التقليديّة تخيّر التواصل فيما بينها بواسطة الرموز، سواء كانت رموز مجسّدة أو إشارات متفق في شأنها[25].

ولكن قد يكون لنفس الرمز دلالات مختلفة وتأويلات محليّة ومتعدّدة خاصة تلك التي تحمل معاني اجتماعية خاصة أو عقديّة وقد تعبّر عن نظرة خصوصيّة محليّة للأشياء.

8– لا يمكن الحديث في هذا المستوى عن «فن السلطة» في غياب سلطة مركزيّة. في الفنون الرسميّة هناك فنون وطُرز فنيّة تُنتج في مركز وعواصم السلطة وتنتقل إلى الأطراف. أما في هذا السياق فنحن إزاء فنون تتوزّع بتنقّل الإنسان وتتواصل بتواصل الحضارات والحقب التاريخيّة، تتأثر بالسابق وتؤثر في اللاحق. فيها مزيج من الفنون الرسميّة والفنون الشعبيّة. تختزل عادات وتقاليد وموروثات وعقائد وتصورات ورموز الحضارات التي مرّت على جنوب شرق إفريقيّة.

[25] من التأويلات المنتشرة بشدة تلك المتعلقة بالخصوبة أو بدفع الحسد والعين الشريرة والرموز ذات العلاقة بذلك هي نفسها تقريبا فالعين ترسم لهذا الغرض وكذلك السمك (الحوت) على جل المحامل. أما الدوائر المنفردة أو المتراكزة لدى بعض المجتمعات فهي تعطى الانطباع بشيء من العلاقة مع الكواكب (الشمس والقمر وقد يكون لذلك علاقة بمعتقدات قديمة) وترى فيها مجتمعات أخرى نوع من التحصين ضد العين الشريرة والحسد. النقطة هي البداية والمنطلق لكل شيء وهي بداية الخط والدائرة. كما أنّ الدائرة نفسها تبتدأ بنقطة. تشير النقطة أيضا إلى الخصب (في إشارة إلى قطرة الماء والماء لا علاقة وطيدة بالخصب والحياة).